حادي عشر : غزوة تبوك

وكانت هي اللقاء الثاني بين المسلمين والنصارى ، بيد أن النبي ﷺ لم يلق عدواً فعاد إلى المدينة ، وكان سببها : أن الروم جمعت جموعاً ، وأجلبت معهم لخم وجذام ، وغيرهم من مستنصرة العرب .[1] قال ابن كثير : قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب - يعني من سنة تسع - ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمان عسرة من الناس ، وشدة الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص في الحال من الزمان الذي هم عليه ، وكان رسول الله قلّ ما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس لبعد المشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد إليه ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم ، فقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : (لا تنفروا في الحر) زهادة في الجهاد ، وشكا في الحق ، وإرجافا بالرسول ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة: ٨١، ٨٢) .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره ، وأمر الناس بالجهاز والانكماش ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها .

ثم استتب برسول الله ﷺ سفره وأجمع السير ، فلما خرج يوم الخميس ضرب عسكره على ثنية الوداع ومعه زيادة على ثلاثين ألفا من الناس ، وضرب

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١٦٥) .

عبد الله بن أبي عدو الله عسكره أسفل منه وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي في طائفة من المنافقين وأهل الريب .

قال ابن إسحاق : ولما انتهى رسول الله إلى تبوك ، أتاه يحنة بن رؤبة صاحب إيلة ، فصالح رسول الله ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله كتابا فهو عندهم .

قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة [1].

وهنا أيضا نرى : أن خروج النبي ﷺ للقتال في هذه الغزوة ؛ إنما كان لتجمع الروم ، ومعهم أعداد غفيرة من نصارى العرب أرادوا غزو المدينة .

* * *

(١) لمعرفة أحداث هذه الغزوة بالتفصيل انظر : البداية والنهاية مرجع سابق جـ ٤ صـ ٣٧٥ وما بعدها .

obeikandl.com

ثاني عشر : المعارك الإسلامية

وقد التقى المسلمون بالنصارى بعد ذلك في الفتوحات الإسلامية ، ومن أهم هذه المعارك [1] :

- **اليرموك .**
- **فتح بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا .**

وكان للقاء المسلمين بالنصارى في هذه المعارك أثر عظيم ، وكان هذا الأثر يظهر من خلال لقاءات بعض النصارى بالمسلمين ، وكذلك عند مصارحة بعض الجنود قادتهم وأمرائهم بأسباب غلبة المسلمين على قلة عددهم ، وتفوقهم على النصارى مع كثرة عددهم وعتادهم ، وكان هذا الاحتكاك ينتهي بإسلام الطرف الآخر ، أو على الأقل إبداء إعجابه بهذا الدين الجديد ، وأذكر هنا بعض هذه المواقف التي تظهر هذا الأثر :

١- موقف خالد بن الوليد مع جرجة :

خرج جرجة ـ أحد الأمراء الكبار ـ حتى كان بين الصفين ونادى ليخرج إلي خالد ، فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه ، فوافقه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد أمن أحدهما صاحبه ، فقال جرجة : يا خالد أصدقني ولا تكذبني فإن الحُرَّ لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه فدعانا ، فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعا ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا

---

(١) لمعرفة أحداث هذه المعارك بالتفصيل انظر : البداية والنهاية / مرجع سابق جـ٧ صـ١١ وما بعدها .

باعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ؛ فقال : أنت سيف من سيوف الله ، سله الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين . قال : صدقتني . ثم أعاد عليه جرجة : يا خالد أخبرني إلام تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله . قال : فمن لم يجبكم ؟ قال : فالجزية ونمنعهم . قال : فإن لم يعطها ؟ قال : نؤذنه بحرب ثم نقاتله . قال : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا . ثم أعاد عليه جرجة : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال : نعم وأفضل . قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : إنا دخلنا في هذا الأمر وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ؛ وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع،وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا،ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية ؛ كان أفضل منا . قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني ؟ قال : بالله لقد صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولي ما سألت عنه . فقال : صدقتني ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال : علمني الإسلام . فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ، ثم صلى ركعتين ، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد ، وهم يرون أنها منه حملة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية ، عليهم عكرمة والحارث ابن هشام ، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين فتنادى الناس فثابوا ، وتراجعت الروم إلى مواقفهم ، فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ، ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما [1].

---

(١) انظر : البداية والنهاية مرجع سابق جـ٧ صـ١٢وما بعدها، وانظر : تاريخ الطبري مرجع سابق جـ٢ صـ٣٣٧ وما بعدها .

٢- موقف هرقل مع واحد من أتباعه :

جاء في كتاب «كتاب الفتوح» : لما نصر الله المسلمين بفحل ، وقدم المنهزمون من الروم على هرقل بأنطاكية ، دعا رجالا منهم فأدخلهم عليه . فقال : حدثوني ويحكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم : أليسوا بشرا مثلكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنتم أكثر أو هم ؟ قالوا : بل نحن . قال : فما بالكم ؟ فسكتوا . فقام شيخ منهم وقال : أنا أخبرك : إنهم إذا حملوا صبروا ولم يكذبوا ، وإذا حملنا لم نصبر ونكذب ، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويرون أن قتلاهم في الجنة وأحياءهم فائزون بالغنيمة والأجر . فقال : يا شيخ لقد صدقتني [1].

٣- عمرو بن العاص (أرطبون العرب) وأرطبون الروم :

كان عمر بن الخطاب ﷺ عند توليته عمرو بن العاص يقول : والله لأرمين أرطبون الروم بأرطبون العرب ، ولما أتى أرطبون إيلياء أفرج له المسلمون حتى دخلها ، ثم أزالهم إلى أجنادين فانضم علقمة ومسروق ومحمد بن عمرو وأبو أيوب إلى عمرو بأجنادين ، وكتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقي ونظيري ، أنت في قومك مثلي في قومي ، والله لا تفتتح من فلسطين شيئا بعد أجنادين ، فارجع ولا تغر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة ، فدعا عمرو رجلا يتكلم بالرومية فأرسله إلى أرطبون وأمره أن يغرب ويتنكر ، وقال : استمع ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله ، وكتب إليه : جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك ، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي ، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد ، وأستعدي عليك فلانا وفلانا لوزرائه فأقرئهم كتابي ولينظروا فيما بيني وبينك ، فخرج الرسول على ما أمره به حتى أتى أرطبون فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر ، فاقترأه فضحكوا وتعجبوا ، وأقبلوا على أرطبون فقالوا : من أين علمت أنه ليس بصاحبها ؟ قال : صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف .

---

(١) انظر : معجم البلدان ياقوت الحموي ط دار الفكر بيروت جـ٣ صـ٢٨٠.

فرجع الرسول إلى عمرو فعرف أنه عمر ، وكتب إلى عمر يستمده ، ويقول : إني أعالج حربا كؤودا صدوما ، وبلادا ادخرت لك فرأيك ، فخرج إليه عمر [1].

٤- عبادة بن الصامت عند المقوقس :

لما حاصر المسلمون بابليون وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم ، وعليهم المقوقس فقاتلوهم شهرا ، فأرسل المقوقس إلى عمرو : إنكم قد ولجتم في بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ، ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم ، نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء ، فلما أتت عمرا رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال لأصحابه : أترون أن يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم ؟ وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يروا حال المسلمين . فرد عليهم عمرو مع رسلهم : إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ؛ ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على

---

(١) انظر : البداية والنهاية مرجع سابق جـ٧ صـ٥٥ وما بعدها ، وانظر : تاريخ الطبري مرجع سابق جـ٢ صـ٤٤٨ وما بعدها .

ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم ، فقال عند ذلك المقوقس : والذي يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ؛ لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم ، فرد إليهم المقوقس رسله يقول لهم : ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم : عبادة بن الصامت ـ وكان طوله عشرة أشبار ـ وأمّره عمرو أن يكون متكلم القوم ، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال ، فإن أمير المؤمنين قد تقدم إليّ في ذلك ، وأمرني ألا أقبل شيئا إلا خصلة من هذه الثلاث الخصال ، وكان عبادة أسودا ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه ، تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده وقال : نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني . فقالوا جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا . إنه وإن كان أسودا كما ترى ؛ فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق ، فإنني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة . فتقدم إليه عبادة فقال : قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل ، كلهم مثلي وأشد سوادا مني ، وأفظع منظرا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد ولّيت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في سبيل الله ، واتباع رضوانه ، وليس

غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب ، أم كان لا يملك إلا درهما ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره ، وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى واقتصر على هذه بيده ، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا : إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه .

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ، ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده ، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وإنا لنعلم أنكم لم تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا ، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به .

فقال عبادة : يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ؛ فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا

به ، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه ، إن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه ، وإن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين : إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(البقرة:٢٤٩). وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وإنما همنا ما أمامنا [1].

٥- العهدة العمرية :

ومن أعظم الشواهد التاريخية على ما كان من لقاء المسلمين مع النصارى ، والحفاظ على ما لهم : ما يعرف بالعهدة العمرية ؛ والتي تصالح عليها عمر ابن الخطاب ﷺ مع أهل إيلياء ، وهذا نص العهدة العمرية : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ،

---

(١) انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي جـ١ صـ١٠ - ١٦ طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .

وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم ؛ فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ؛ فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين ؛ إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان ؛ وكتب وحضر سنة خمس عشرة [1].

إن هذه المواقف ـ وغيرها كثير ـ يظهر مدى تأثر النصارى بالمسلمين ، وأن الهدف من هذه المعارك لم يكن لإخضاع القوم ولا إذلالهم ؛ وإنما لهداية قلوبهم بعد إزالة الغشاوة من على أبصارهم .

* * *

(١) انظر: تاريخ الطبري مرجع سابق ج ٢ص ٤٤٩ وما بعدها.

obeikandl.com

ثالث عشر : النصارى في الحكم الإسلامي

لم تكن التعاليم التي جاء بها الإسلام في معاملة النصارى من أكل طعامهم ، ومناكحة نسائهم ، والإحسان في مجادلتهم ، وحسن معاملتهم ، لم يكن هذا كله مجرد أقوال يتغنى بها المسلمون ، إنما كانت هذه الأقوال واقعة في دائرة التنفيذ ، وداخلة في حيز التطبيق .

ولما آلت الخلافة إلى أبي بكر ﷺ ، بعد النبي ﷺ ؛ أكد في عهده لأهل نجران ، أنه أجارهم بجوار الله ، وذمة رسول الله ﷺ على أنفسهم ، وأرضهم ، وملتهم ، وعبادتهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وفاءً لهم بكل ما ورد في العهد النبوي لنصارى نجران .[1]

وهذا عمر ﷺ يسأل القادمين عليه من الأقاليم عن أهل الذمة [2] فيقولون : ما نعلم إلا وفاء [3].

وهذا علي بن أبي طالب ﷺ يقول : إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودمائهم كدمائنا [4].

ويكتب علي ﷺ لبعض ولاته فيقول : إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاءً ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تقمه على رجله في درهم [5].

وقد روى صاحب (تاريخ دمشق) : أن أبا عبيدة ﷺ لما انسحب من حمص بعد أن فرض عليها الجزية إلى اليرموك بكى النصارى في حمص وقالوا : يا معشر

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٣/١٦٥) .

(٢) كلمة الذمة : تعني الضمان والعهد والأمان وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله وعهد جماعة من المسلمين فهذه الذمة تعطى لغير المسلمين ما يشبه في عصرنا هذا بالجنسية وهذا ما عبر عنه الشهيد عبد القادر عودة والدكتور عبد الكريم زيدان بأنهم «حاملو الجنسية الإسلامية». انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي صـ٧ مرجع سابق .

(٣) انظر : تاريخ الطبري (٣/٥٠٣) .

(٤) انظر : المغني لابن قدامة (١٠/٦١٣) .

(٥) انظر : الخراج لأبي يوسف صـ ١٨ .

المسلمين ! أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم ـ أي الروم ـ غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا [1].

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري : أن الأوزاعي كتب إلى صالح بن علي ابن عبد الله العباسي لما قتل مقاتلة لبنان ، وأجلى بعضهم لما خرجوا على الخليفة : وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ وحكم الله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (النجم:٣٨) ، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : «من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» [2]. [3]

ويكتب عمر ﷺ لأبي عبيدة ﷺ : امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها .

بل إن عمر ﷺ يكتب في عهده لأهل إيلياء ـ القدس ـ : هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين لأهل إيلياء من الأمان :

١- أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم .

٢- أعطاهم أماناً لكنائسهم وصلبانهم وسائر ملتها .

٣- لا تسكن كنائسهم ولا شيء من أموالهم .

٤- لا يكرهون على دينهم .

٥- لا يضار أحد منهم . [4]

ويعد الفاروق عمر ﷺ من أعظم خلفاء الإسلام تأدية لحقوق أهل الكتاب بمن فيهم النصارى ، فقد روى أبو يوسف في كتاب الخراج : أن عمر مر على قوم قد أقيموا في الشمس في بعض أرض الشام . فقال : ما شأن هؤلاء ؟ فقيل له : إنهم

---

(١) انظر : تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣٠/٤١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) انظر : فتوح البلدان للبلاذري (١٩٢/١) .

(٤) انظر : تاريخ الطبري ، مرجع سابق ، (٤٤٦/٢) .

أقيموا في الجزية [1] ! فكره ذلك . وقال : هم وما يتعذرون به قالوا : يقولون : لا نجد فقال : دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، ثم أمر بهم فخلى سبيلهم .

ولعل قصة القبطي مع ابن عمرو بن العاص ﷺ من أروع ما قصه التاريخ على أذهان البشر ، يقول الشهيد سيد قطب : وحادثة ابن القبطي الذي سابق ابن عمرو بن العاص فاتح مصر ووواليها فضربه ابن عمرو ، فشكا أبوه إلى عمر ابن الخطاب ، فأقصه منه في موسم الحج وعلى ملأ من الناس . . . حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر . . . . ولكن الحادثة أوسع دلالة على ذلك التيار التحرري الذي أطلقه الإسلام في ضمائر الناس وفي حياتهم .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح . حديث عهد بالفتح والإسلام . وهذا القبطي قبطي لم يزل على دينه ، فرداً من جماهير البلد المفتوح وعمرو بن العاص هو فاتح هذه الأقاليم وأول أمير عليه من قبل الإسلام ، وحكام هذا الإقليم قبل الفتح الإسلامي هم الرومان : أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان !

ولكن المد التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطي سياط الرومان وذلها ، وأطلقه إنساناً حراً كريماً ، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما في سباق وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلى المدينة ، لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطاراً ، ولكن جملاً يخب به الأشهر الطوال كل ذلك ليشكو إلى الخليفة . . . . الخليفة الذي حرره يوم فتح بلده تحت راية الإسلام ، والذي علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان ![2]

ويذكر التاريخ لنا أيضاً صدق عمر ﷺ في المعاملة ورفقه بالنصارى ، وأشباههم فقد قدم أحد عمال عمر بن الخطاب عليه بأموال الجزية ، فوجدها

---

(١) الجزية : هي المال المقدر المأخوذ من الذمي فهي ضريبة على الرؤوس يلتزم الذمي بأدائها إلى الدولة الإسلامية في معادها المعين متى توافرت شروط وجوبها ولم يوجد ما يسقطها . انظر : أحكام الذميين والمستأمنين مرجع سابق صـ١٣٨.

(٢) انظر : هذا الدين سيد قطب ط دار الشروق ١٩٧٨م صـ٨٢ .

كثيرة فقال لعامله : إني لأظنكم قد أهلكتم الناس ؟ فقال : لا والله ما أخذنا إلا عفواً وصفواً . فقال عمر ﷺ : بلا سوط ولا نوط ؟ فقال : نعم ، فقال عمر ﷺ : الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني [١].

ولما أصيب عمر بضربة أبي لؤلؤة المجوسي فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده ـ كائنا من كان ـ وهو على فراش الموت فيقول : أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً ، أن يوفى بعهدهم ، وأن يقاتل مَن ورائهم ، وألا يكلفهم فوق طاقتهم [٢] .

إن الجزية إنما قامت مقام العمل العسكري للمسلم في وطنه ، وحماية لأهل الكتاب ، فإن لم يكن من المسلمين حماية ردت على النصارى وأشباههم جزيتهم وأموالهم ، وهذا ما كان من أبي عبيدة ﷺ حين علم بتجمع جحافل الروم؛ فأمر نوابه برد الجزية . روى أبو يوسف في الخراج أن أبا عبيدة قال : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم .

وهذا عمرو بن العاص ﷺ يكتب لأهل مصر معاهدة فينص فيها على ما يلي : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على : أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ..... [٣]

وهذا خالد بن الوليد حين دخل دمشق كتب كتابا لأهلها جاء فيه : أن قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم [٤].

---

(١) رواه أبو عبيد في الأموال صـ٢٩١ .

(٢) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٢) .

(٣) انظر : تاريخ الطبري مرجع سابق جـ٢ صـ٥١٣، ٥١٤ .

(٤) انظر : الأموال حميد بن زنجويه تحقيق : د : شاكر ذيب فياض جـ٢ صـ٤٧٣ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الأولى ١٩٨٦م ، و انظر : الأموال أبي عبيد القاسم بن سلام تحقيق : د : محمد عمارة صـ٢٩٥ ط دار الشروق ط الأولى ١٩٨٩م .

ويروي لنا الإمام مسلم في صحيحه أن هشام بن حكيم بن حزام مرّ على أناس من الأنباط بالشام . قد أقيموا في الشمس . فقال : ما شأنهم ؟ قالوا : حبسوا في الجزية . فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » . وزاد في حديث جرير : قال : وأميرهم يومئذ عمير ابن سعد على فلسطين فدخل عليه فحدثه . فأمر بهم فخلوا [1].

وهذا الحارث بن أبي ربيعة لما ماتت أمه ـ وكانت نصرانية ـ شيّعها أصحاب رسول الله ﷺ[2] .

وهذا عمر بن عبد العزيز يعهد إلى بعض عماله فيقول له : عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك ، فإن تقوى الله أفضل العدة ، وأبلغ المكيدة ، وأقوى القوة ..... إلى أن يقول : ونح منزلك عن قرى أهل الصلح والذمة ، ولا يدخلها أحد من أصحابك لسوقهم وحاجتهم إلا من تثق به وتأمنه على نفسه ودينه ، فلا يصيبوا فيها ظلما ولا يتزودوا منها إثما ، ولا يرزؤون أحدا من أهلها شيئا إلا بحق ؛ فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها . [3]

ولله در عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى فإنه كتب إلى حيان عامله على مصر، فكتب إليه حيان : أما بعد يا أمير المؤمنين فإنه إن دام هذا الأمر في مصر أسلمت الذمة ، وبطل ما يؤخذ منهم . فأرسل إليه رسولاً وقال له : اضرب حيان على رأسه ثلاثين سوطا أدبا على قوله ، وقل له : من دخل في دين الإسلام فضع عنه الجزية ، فوددت لو أسلموا كلهم فإن الله بعث محمدا ﷺ داعيا لا جابيا [4].

ولم يكن هذا الأمر قاصراً على العهد الأول فقط ؛ بل يذكر لنا التاريخ موقفاً لأحمد بن طولون وهو : أن ابن طولون أرسل أحد قواده ليجمع الخراج[5]

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦١٣) عن هشام بن حكيم .

(٢) انظر : المحلى ابن حزم جـ٥ صـ١١٧دار الأفاق الجديدة بيروت بدون .

(٣) انظر حلية الأولياء أبو نعيم جـ٥ صـ٣٠٣،٣٠٤ دار الكتاب العربي بيروت ط الرابعة ١٤٠٥هـ.

(٤) انظر : أحكام أهل الذمة جـ١ صـ٢١٣دار العلم للملايين ط الأولى ١٩٦١م .

(٥) هو ضريبة مالية على الأراضي وهذه تسمى الأراضي الخراجية . انظر : أحكام الذميين والمستأمنين صـ١٥٨.

فاغتصب القائد من راهب خمسمائة دينار إذ قيل : إن هذا الراهب يملك كنزاً . فبكى الراهب وحزن فأشير عليه بأن يذهب إلى الفسطاط ويكتب قصته ويقدمها لابن طولون فإنه «أمير عادل منصف» ففعل الراهب ذلك . فرآه حاجب ابن طولون وكان الحاجب صديقاً للقائد الظالم . فسأل الحاجب الراهب عن حاجته فقص عليه القصة فخشى الحاجب من تأديب ابن طولون لصاحبه ، فدفع للراهب خمسمائة دينار بدلاً عن القائد واسترضاه فرضي وعاد إلى بلده .

وعلم بالحادثة بعض الناس فأبلغوها إلى ابن طولون ، فأحضر القائد والحاجب والراهب ، ثم قال للراهب : كان سبيلك ـ ويلك ـ أن تدعي عليه ـ أي على القائد ـ بثلاثة آلاف دينار فآخذها لك منه وأجعل ذلك تأديباً له ولغيره . ثم قال الحاجب : والله إنها مكرمة سارعت إليها وجميل رغبت فيه وقد قال الله عز وجل : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (الرحمن:٦٠) . قال ابن طولون : احذر أن تعاود مثلها ، ولا تستبدن بأمر تأتيه دون أن تعرفنا به . فقال الحاجب : أقلني أيها الأمير أقالك الله فوالله لا أعود لمثلها أبداً . قال : فانصرف إلى موضعك ! ثم التفت ابن طولون إلى القائد وقال له : أفي رزقك تقصير عن مئونتك ؟ قال : لا . قال : فأخر عنك استحقاقك يضطرك إلى ما أتيته ؟ قال : لا . قال : فبأي حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به قلبه . وتبكي عينه وتفرقه وأهله ؟ ألك حاجة أوجبت ذلك عليك أو ضرورة دعتك إليه ؟ ..... المطبق[1] ! وأمر بسجنه ! وهكذا حبس القائد الكبير في قبطي مظلوم ![2] .

* * *

(١) المطبق : اسم لسجن ابن طولون .

(٢) انظر : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام الشيخ محمد الغزالي ط : دار البيان الكويت صـ٢٠٢ وما بعدها .

رابع عشر : النصارى في بلاط الخلفاء

أدرك النصارى كما أدرك غيرهم خلق التسامح الذي عرف به الإسلام ، وقد كان هذا الأمر حافزاً للنصارى ولغيرهم ليتقلدوا زمام الأمور في كثير من الأوقات ، حتى إنه وصل بهم الأمر وباليهود أيضا : أن يستغلوا سماحة الإسلام ـ وسذاجة أهله أحياناً ـ فيذلوا رعايا الدولة الإسلامية التي احتضنتهم في صدرها ، وضمتهم في حناياها ، وأولتهم عطفها وحنانها حتى قال الشاعر :

يهود هـذا الزمـان قـد بلغـوا ... غايـة آمـالهم و قـد ملكـوا
المجـد فـيهم والمـال عنـدهمو ... ومنـهم المستشـار والملـك
يا أهل مصر إن نصـحت لكـم ... تهـودوا قـد تهـود الفلـك

وتشهد كتب التاريخ أن معاوية ﷺ اتخذ كاتباً نصرانياً اسمه سرجون ، وأن أبا عبيدة ﷺ اتخذ أيضا كاتباً نصرانياً ؛ ولكن عمر ﷺ نهى عن ذلك .

وقد استخدم معاوية ﷺ النصارى في مصالح الدولة ، وقرّب النابهين منهم ، وعهد بالإدارة المالية إلى أسرة نصرانية ، ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة وهي أسرة (سرجون) .

وأبقى في دواوين الشام الكتاب من النصارى من أهل البلاد لكثرتهم يكتبون باليونانية ، كما اختار معاوية الطبيب النصراني «ابن أثال» ليكون طبيبه الخاص ، وكتب «ابن بطريق» وهو رجل من أهل فلسطين لسليمان بن عبد الملك ، وكتب «تاذري بن أسطين» لهشام بن عبد الملك .

وبرز من النصارى شعراء فحول فقربهم الخلفاء ، ومنهم : الأخطل التغلبي ، والذي يعد شاعر بني أمية . قال عنه عبد الملك بن مروان : إن لكل قوم شاعراً ،

وإن شاعر بني أمية الأخطل . ومنهم أيضاً «أعشى بن ربيعة» و «مرقص الطائي» و «نابغة بن شيبان» .

ولقد اعترف المؤرخون من غير المسلمين بذلك يقول «أرنولد» : لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ النصارى في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بعداً تاماً عن الاضطهاد الديني .

ويقول «ول ديورانت» : لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزردشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح ، لا تجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائرهم الدينية ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم .

وذكر «السير توماس أرنولد» أسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين في الدويلات الإسلامية ، وأسماء الأطباء المقربين من الخلفاء ، ثم قال : إن المسيحيين أحرزوا ثروات ، وتمتعوا بنجاح عظيم في عصور الإسلام الأولى بفضل ما كفل الإسلام لهم من حرية الحياة والملك والعقيدة ، حتى كان منهم أصحاب النفوذ العظيم في قصور الخلفاء[1] .

ويذكر الدكتور القرضاوي حفظه الله : أنه يجوز لأهل الذمة تولى وظائف الدولة كالمسلمين ، إلا ما غلب عليه الصبغة الدينية كالإمامة ، ورئاسة الدولة ، والقيادة في الجيش ، والقضاء بين المسلمين ، والولاية على الصدقات ونحو ذلك .

وما عدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة ؛ إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بد منها : من الكفاية ، والأمانة ، والإخلاص للدولة [2].

---

(١) نقلاً عن : السياسة الأموية تجاه أهل الذمة ومؤسساتهم في بلاد الشام د : مروان القدومي بحث في مجلة الدعوة الإسلامية الليبية العدد الخامس .

(٢) انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي مرجع سابق صـ٢٣، ٢٤ بتصرف .

وقد صرح الإمام الفقيه الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» بجواز تقليد الذمي «وزارة التنفيذ» ، ووزير التنفيذ هو الذي يبلغ أوامر الإمام ، وهذا بخلاف وزارة التفويض [1].

وقد تمرغ عدد غير قليل منهم في بلاط الخلفاء ، ويذكر الدكتور الخربوطلي في كتابه أهل الذمة ما يلي :

اشتهر من بين أهل الذمة في العصر العباسي كثير من العظماء مثل «جرجس بن نجتيشوع» طبيب الخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور» ، وقد وثق فيه الخليفة وأكرمه ، ومن هؤلاء «جبرائيل بن نختيشوع» طبيب «هارون الرشيد» الذي قال الرشيد عنه : كل من كانت له حاجة إليَّ فليخاطب بها جبريل ، لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني [2]. وكان مرتب الطبيب عشرة آلاف درهم سنوياً ، ويصله كل سنة بعشرين ألفاً .

وأشاد ترتون بتسامح المسلمين فقال : والكتاب المسلمون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء ممن على غير ملتهم ، حتى ليُسمون «حنين بن إسحق» برأس أطباء عصره ، و«هبة الله بن تلميذ» بأبو قراط عصره وجالينوس دهره .

وكان «نختيشوع بن جبرائيل» ينعم بعطف الخليفة المتوكل حتى إنه كاد يضاهيه في ملابسه ، وفي حسن الحال ، وكثرة المال ، وكمال المروءة ، ومبارته في الطيب والجواري والعبيد .

ولما مرض «سلمويه» بعث المعتصم ابنه لزيارته ، ولما مات أمر بأن تحضر جنازته إلى القصر ، وأن يصلى عليه بالشموع والبخور جرياً على عادة النصارى ، وامتنع المعتصم يوم موته عن أكل الطعام .

أما «يوحنا بن ماسويه» فقد خدم الخلفاء العباسيين منذ «الرشيد» إلى «المتوكل» ، وكان لا يغيب قط عن طعامهم ، فكانوا لا يتناولون شيئاً من

---

(١) نقلاً عن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي مرجع سابق صـ٣٣ .

(٢) في هذا تجاوز ، ولم يكن لهارون الرشيد أن يجعل بينه وبين رعاياه أحداً .

أطعمتهم إلا بحضرته ، ومن ثم لم يكن هناك أدنى كلفة بينه وبين الخليفة المتوكل ، فكان الخليفة يداعبه في رفق ولين [1].

وقد ذكر صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» عدداً من أهل الذمة الذين عاشوا في ظل الدولة الإسلامية نذكر منهم :

● **في العهد الراشدي :**

أرسل معاوية طبيباً نصرانياً من الشام ليداوي عثمان من مرض أصابه .

● **في الخلافة الأموية :**

١- كان لمعاوية طبيبان نصرانيان :

الأول : ابن أثال وكان خبيراً بالسموم .

الثاني : أبو الحكم الدمشقي وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية والطب .

٢- حكم الدمشقي وهو ابن أبي الحكم السابق وكان من أطباء الدولة الأموية .

٣- عيسى بن حكم الدمشقي وقد عمر حتى جاوز المئة .

٤- تياذدق وكان الطبيب الخاص للحجاج بن يوسف الثقفي .

٥- عبد الملك بن أبجر الكناني وكان طبيباً لعمر بن عبد العزيز عندما كان أبوه والياً على مصروقد أقنعه عمر بالإسلام فأسلم .

● **في الخلافة العباسية :**

اشتهرت عائلة «نجتيشوع» بالطب وبرز منهم عدد من الأطباء في الخلافة العباسية ومنهم :

---

(١) انظر : غير المسلمين في المجتمع الإسلامي مرجع سابق صـ٥٧،٥٨.

١- «جوريجوس بن جبرائيل بن نجتيشوع» وقد استدعاه المنصور فداوى المنصور من مرض أصاب معدته ، فجعله طبيباً له ولأسرته ، وكان المنصور يقول له : اتق الله وأسلم أضمن لك الجنة . فلم يُسْلِم .

٢- نجتيشوع بن جورجيوس . وقد خلف أباه في الطب ، وجعله هارون الرشيد طبيبه الخاص .

٣- يوحنا بن نجتيشوع وكان طبيباً للخليفة العباسي الموفق بالله .

٤- نجتيشوع بن يوحنا وكان طبيباً خاصاً للراضي بن المقتدر .

كما اشتهرت كذلك عائلة «ماسويه» بعد عائلة «نجتيشوع» وكان منهم :

١- ماسويه الخوري .

٢- يوحنا بن ماسويه وكان من المقربين من الخليفة الواثق .

٣- عيسى أبو قريش النصراني [١] .

* * *

(١) انظر :عيون الأنباء في طبقات الأطباء ابن أبي أصيبعة ط دار مكتبة الحياة بيروت صـ١٨٣وما بعدها .

obeikandl.com

خامس عشر : مواقف خالدة لعلماء الإسلام وقضاته

وقد سجل التاريخ لنا مواقف رائعة ، تكتب لعلماء الإسلام ، حيث وقفوا أمام الأمراء والحكام لإنصاف النصارى ونصرتهم . ومن هذه المواقف :

١- شريح القاضي وسارق درع علي بن أبي طالب :

ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية : عن الشعبي قال : وجد علي بن أبى طالب درعه عند رجل نصراني فأقبل إلى شريح يخاصمه . قال : فجاء علي حتى جلس جنب شريح ، وقال : يا شريح هذا الدرع درعي ولم أبع ولم أهب . فقال شريح للنصراني : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال النصراني : ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب . فالتفت شريح إلى علي فقال : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال : أصاب شريح ما لي بينة . فقضى بها شريح للنصراني . قال : فأخذه النصراني ومشى خطا ثم رجع فقال : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء ؛ أمير المؤمنين يدفعني إلى قاضيه يقضى عليه ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين ، فخرجت من بعيرك الأورق . فقال علي : أما إذ أسلمت فهي لك ، وحمله على فرس .[1]

إننا لا نملك أمام هذا المشهد إلا أن نقر بعظمة الإسلام ، وتواضع رجاله العظام ، وجرأة قضاته العادلين ، وهذا ما حدا بهذا النصراني أن يسلم لما رأى من عظمة هذا الدين ، ووضوح مبادئه .

٢- الإمام الأوزاعي وأهل لبنان :

ذكر صاحب «فتوح البلدان» قال : خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك ، فوجه صالح بن على بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم ، وأقر من بقي

---

(١) انظر : البداية والنهاية مرجع سابق جـ٨ صـ٤، ٥.

منهم على دينهم ، وردهم إلى قراهم وأجلى قوما من أهل لبنان ، فحدثني القاسم ابن سلام أن محمد بن كثير حدثه أن الأوزاعي كتب إلى صالح رسالة طويلة حفظ منها : وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت ، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ وحكم الله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ وهو أحق ما وُقف عنده واقتدي به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال : « من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه »[1] ، ثم ذكر كلاما [2].

فانظر إلى هذا الموقف الرائع الذي وقفه أحد فقهاء الإسلام وهو الإمام الأوزاعي رحمه الله ، وكيف منع والي المسلمين من التمادي في هذا الظلم الذي وقع على بعض النصارى من أهل الذمة ، الذين لم يكن لهم شيء في الخروج على عامل الوالي ؟ وكيف أوقفه عند حده وذكره بأحكام الشريعة ونصوصها ، حتى رجع عن ظلمه .

٣- جميع بن حاضر الباجي وأهل سمرقند :

ذكر البلاذري في « فتوح البلدان » قال : قال أبو عبيدة : لما استخلف عمر ابن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فرفعوا إليه : أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا ، فنصب لهم « جميع بن حاضر الباجي » القاضي فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم [3].

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر: فتوح البلدان البلاذري ط دار الكتب العلمية بيروت ط ١٤٠٣ هـ صـ١٦٦، ١٦٧.

(٣) انظر: فتوح البلدان مرجع سابق صـ٤١١ .

٤- إسماعيل بن إسحاق وعبدون بن صاعد النصراني :

قال القاضي عياض : حدث الدارقطني أن القاضي إسماعيل بن إسحاق ـ من أعلام المالكية ، وقاضي بغداد توفى سنة ٢٨٢هـ ـ دخل عليه عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي ، فقام له القاضي ورحّب به . فرأى إنكار الشهود لذلك ، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل : قد علمتُ إنكاركم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨) ، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين المعتضد ... وهذا من البر » [١] .

٥- شيخ الإسلام ابن تيمية وأسرى أهل الذمة :

ولعله لا أروع مما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ حين كلم « قطلوشاه» التتري في إطلاق الأسرى ، فسمح له القائد التتري بإطلاق أسرى المسلمين ، وأبى أن يسمح له بإطلاق أهل الذمة ، فما كان من شيخ الإسلام إلا أن قال : لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ، ولا من أهل الملة ، فلما رأى إصراره وتشدده أطلقهم له [٢].

فانظر هنا أيضا إلى تشدد ابن تيمية ، وحرصه على سلامة أهل الذمة ، وحفظ حياتهم ، وإصراره على فكاكهم ، وعدم التفريق بين أسير وآخر حتى ولو اختلفت الديانة .

---

(١) انظر: ترتيب المدارك القاضي عياض جـ٣ صـ١٦٦ ط دار الحياة ببيروت ـ تحقيق د . أحمد بكير محمود .

(٢) انظر : شرح السير الكبير جـ١ صـ١٠٨ وما بعدها .

٦- الإمام القرافي :

وأختم هنا بكلمة رائعة للإمام شهاب الدين القرافي وهو يشرح كلمة «البر» الواردة في سورة الممتحنة ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨) ، فقال رحمه الله : الرفق بضعيفهم ، وسد خُلّة فقيرهم ، وإطعام جائعهم ، وكساء عاريهم ، ولين القول لهم - على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة - واحتمال إذايتهم في الجوار - مع القدرة على إزالته - لطفا منا بهم ، لا خوفا ولا طمعا ، والدعاء لهم بالهداية ، وأن يُجعلوا من أهل السعادة ، ونصيحتهم في جميع أمورهم ، في دينهم ودنياهم ، وحفظ غيبتهم ، إذا تعرض أحد لأذيتهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم ، وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم ، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم...إلخ [١].

* * *

(١) انظر: الفروق القرافي جـ٣ صـ١٥ دار المعرفة بيروت بدون .